الحس الديني والعروبي في الشعر العربي، رثاء المدن الأند لسية أنموذجا

أ.د. نجود عطاالله الحوامدة، الأردن ،جامعة جرش

" ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان"

ملخص البحث

أرخ الشعرالعربي عموما للحضارة العربية الإسلامية بكل تطورها،التي شهدت تألقا في المجالات الثقافية والعلمية والأدبية والعمرانية ومنهم شعراء العصر الأندلسي ،وإذا كان الشعراء الأندلسيون قد برعوا في كل الأغراض الشعرية وذاع صيتهم في الساحة الشعرية ومنها شعر الرثاء بعامة ، إلا أن موضوع هذا البحث سيقف عند رثاء المدن الأندلسية الذي أكد على كفاح أمة، وجهاد شعب وتفجعه لما لحق به من محن وخراب حتى خروجهم من آخر مملكة لهم في غرناطة.

حفلت هذه الدراسة الأكاديمية بمراجعة شعر رثاء المدن الأندلسية في كل الحقب التاريخية،ليتسنى للبحث توصيف المراحل الشعرية التي قطعها فن رثاء المدن، على أيدي الشعراء الذين حذقوه وعاشوا مرارته وذاقوا طعم الهزيمة والاندحار، فصنف هذا الرثاء في خانة بكائيات الديار التي عرفها الشعر العربي على مرّ العصور، ومن هنا فقد استوقف البحث أشهر الشعراء في البكائيات، ألا وهو الشاعر أبو البقاء الرندي أنموذجا، ، الذي اشتهر أمره في الأندلس والمغرب، وهو واحدٌ من أدباء القرن السّابع(٦٠١/١٢٠٤ه – ٦٨٤/١٢٨٥م)، من أبناء رُندة، وإليها نسبته، وكان فقيها حافظاً متفنناً في النّظم والنّثر، وبرع في فنون المدح، والغزل، والوصف، والزهد، إلا أن شخصيته خلدت بقصيدته (رثاء الأندلس) التي عُرفت بتسميّات عدّة كـ (نونية أبي البقاء الرُّندي،....وغيرها)

وفي نظرة تفحصية لأهمية (قصيدة نونية الرندي) تمهيدا لاعتمادها نصا ارتكزتُ عليها،وجدت فيها تجليات معاناة الهزيمة،وتمثلت فيها أسمى مظاهر التعلق بالدين والخوف على ضياعه، وضياع الأمة الإسلامية،فكم آلمه حال ضياع الدين حتى سجله الرندي متألما بقوله:

أصابها العين في الإسلام فارتزأت ** حتى خلت منه أقـــطارٌ وبــلدانُ

على ديارٍ من الإسلام خاليـــــــــة ** قد أقفرت ولها بالكفر عُمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ** فيهنّ إلا نواقيسٌ وصـــــلبانُ

بدأت القصيدة بمقدمة وعظيّة حِكميّة مُوفقة مدروسة، تتفق وسياق القصيدة، و تسهم إسهاماً واسعاً في إيصال رسالة الرندي لقارئه، وتهيئته لما تحمله أبيات القصيدة من قيم إسلامية وعروبية أصيلة يفاخر بها الشاعرتغلفها الحسرة والتفجع،لما فُقد من المساجد ومدن اسلامية أسسها العرب وحملت شعار الاسلام،ونتيجة لكل هذه المضامين استدعت البحث ليوسم بهذا العنوان وعتبه الأولى ،فهذه القصيدة شاهد على المأساة ،وماثلة في نفوس القراء حقيقية قارة للمعاناة والتفجع،سجل الشاعر فيه آلامه مستنهضا همم العروبة ، متفجعا على مصير الدين الاسلامي والمسلمين بعد أن استردها الاسبان واستباحوا المدن واهلها.

هذا الحس الديني والعروبي الذي توطن في ضمير الشعر العربي عامة منذ العصر العباسي وما حل في بغداد من الفتن والمحن حينها ،إلى أن انتقلت الى المدن الأندلسية، واستقر هذا الحس الاسلامي في قصيدة الرندي كما عند غيره من شعراء الأندلس.

ينطلق البحث بمنهجيته لهذه القصيدة وصفا وتحليلا لمضامينها من حيث: تحليل صورها الفنية، ولغتها ، وأساليب الحجاج الرندي لما أشجاه وأبكاه على ضياع الوطن والدين والعروبة، مسجلا صرخاته داعيا إلى الوحدة والجهاد في سبيل الله ضدد اعداء الأنلس.

وبعد أن اطمأن البحث إلى تحقق الفائدة من تحليل القصيدة فقد توصلت الى نتائج أودعتها في هذا الملخص:

رثاء المدن يصدر عن تجربة قاسيه عميقة تتجاوز آلام الشخص الخاصة إلى مكابدة الخطوب و الهموم العظيمة العامة،فسطرالرندي حنينه الوطني بعاطفة شجية ونفس ملتاعة، داعيا إلى الوحدة و الجهاد لحماية المدن الأندلسية المستباحة ،ومن الخصائص الفنية في القصيدة،الاعتماد على الصورة الفنية بأنواعها لإبراز المعاني، والصورة التشخيصية لبث الحركة فيها، والمقابلة بين ما كانت عليه الأندلس ،وكذلك الإكثار من الأسلوب الحجاجي في الاستفهام، التركيز على الناحية الدينية و مزجها بالناحية الإنسانية للأندلسين وما آل إليه حالهم ،أما صوت قافية (النّون)في القصيدة فقد تمركز بصفاته الشّجيّة الحزينة الهادئة و يُعدّ تنفسياً للشاعر لإخراج الكم الهائل من الألم والمرارة والحسرة، ولا يمكن تجاهل صوت المد في القصيدة(ألف المد) الذي لازم القافية في كل أبياتها، وهذا الصوت عادة ما يسهم في إخراج النّفس وإدخاله، مما يُسّهل على الشّاعر ويريحه في إخراج حزنه وكمده وقهره، الذّي يصل إلى المُتلقي بسهولة ويُسر.

وبعد، فهذه قصيدة الرندي الشهيرة التي استوعبت المأساة والمحنة الأندلسية،وأزعم بأنها الأنموذج الشاهد على غرض رثاء المدن في عصره الذي قدمه سجل الشعر الاندلسي في شعر رثاء المدن.